

موعظة القيامة

بقلم الأديب مارون عبود

خرج الخوري يوحنا عبود من الاحتفال بدفن المسيح يوم الجمعة، وصدرة يكاد ينشق من الحزن، وفي غضون وجهه بقية دمع لم تجف بعد. مشى يتعكز على عصا سنديانية معقوفة المقبض، يجر أذيال جبته الزرقاء، وعلى رأسه قاووق الخوري الملروني العتيق الذي لم يرض به بدلاً طول العمر. كاهن شيخ خدم المزبح ٦٥ عاماً، ما تمثّلت له مأساة سيده الشاب عند مغيب شمس العمر حتى خال أنه يراها بعينه في أورشليم سنة ٣٣ مسيحية.

انفطر قلبه التياغاً، فكان يحسب كل زهرة تلقى على الصليب الدفين من أيدي المؤمنين حربة مسمومة. وأمست كل كلمة يسمعها من (السنكسار) عن آلام الابن الوحيد ومهاتته تهيج شجونه. فكم صرف بأنيابه حنقاً على قيافا ويوحنان، وكم ألمه تذبذب ببلاطس البُنطي. ويا لفجيته إذ رأى السيد، وحده، بين الكهنة ورؤساء الكهنة والكتبة وأذناهم ييصقون بوجهه ويلطمونه، وتلاميذه تركوه وخذلوه. تمنى لو انه كان في ذلك الزمان فينصره ويموت معه شهيداً، فيرث الملكوت بأقرب وسيلة وأضمنها. هكذا كان الخوري عندما برح الهيكل. كان يسير في طريق بيته منكمس الرأس، مكسور خاطر كأنه قبر أحد بنيه، وسارت رعيته خلفه صامتين كأنهم عاندون من مآثم شاب في ميعة العمر، ولا غرابة فكلهم مسيحيون تغلغل اليقين في قلوبهم حتى الصميم.

بلغ الخوري بيته وليس وراءه غير بنيه ثلاثتهم، لأن الناس ارفضوا عنه شيئاً فشيئاً، فالوقت الظهر وكلهم صائمون، وبيت الخوري في رأس الضيعة. أظفر الخوري وأولاده، وودع الطبق إلى صباح الأحد. تلك كانت عادته في مثل ذلك اليوم كل عام، يطوي هذين اليومين زهداً وإماتة نفس ابتغاء النعمة والأجر. تغدّى وعاد إلى الكنيسة ليزور قبر الفادي ويتعظ بفاجعة ابن الانسان، ويتألم لآلامه، ويشبع مجاعته الروحية قبل الرحيل متزوداً لآخرته ما يشفع به عند الله. كان يصلي لأجل رعيته، ويحاسب نفسه قبل أن يأتي السارق، ويمحو بدموع التوبة كل لطفة في كتاب أعماله قبل عرضه على ربه في الدينونة الخاصة حين يقف بين يديه عريان، والموعد قريب، فالخوري يوحنا ابن ثمان وثمانين وان يكن بعد ذا همة.

صرف عصرى الجمعة في الكنيسة، طوراً يُلصّي جاثياً، وتارة يقرأ متأملاً في كتاب (مرشد الخاطيء)، وحيناً في كتاب (مرشد الكاهن)، ويتبحر في شرح بلرمنيوس للعقائد المسيحية. ثم ينتقل الى منبر التوبة يسمع اعترافات المؤمنين والمؤمنات. ولما غابت الشمس قرع الجرس حزناً. ولم لا؟ فالمسيح مات. ثم أسرج قنديلاً وفتش عن صلاة المساء في (الحاش)، وقلب صفحات السنكسار و(الريش قرين) والأناجيل والافراميات حتى إذا عثر على الفصول الخاصة بتلك الليلة الرهيبة طوى الكتاب ووضعها ناحية. وجاء دور السجودات فنيف عدد ركعاته على المئة.

ولما اجتمع الشعب قامت الصلاة، فمنح رعيته البركة في آخرها وأوصاهم جميعاً أن ينقوا ضمائرهم ويستعدوا لملاقاة الختن السماوي بمصابيح العذارى الحكيمات المملوءة بزيت التقوى المنبثق منها نور الإيمان وحرارة الندامة والرجاء وأشعة المحبة المسيحية الصادقة. عاد الناس إلى بيوتهم وظل الخوري يوحنا يصلي عند القبر. يطيب له الرنين ويلذ له النواح الروحي المرسل من صدر عامر بالإيمان، ومن نفس قانتة ألبسها الله ثوب ندامة لم يلبس داود إبّان توبته أجمل منه وأبهى. وكان يجثو بالقرب منه شقيقه الخوري موسى الضرير، يصلي

ويسمع ما يقرأ عليه أخوه. وكان الخوري موسى رقيق القلب تفيض دموعه بغزارة لأقل كلمة تلامس شعوره الديني. وقبل منتصف الليل أثلث الكهنة : انضم اليهم أخوهم بالمسيح الخوري يوحنا الحداد الذي قام برتبة دفن المسيح في مزرعة مجاورة لا خوري لها. هذا الكاهن طيب القلب اشتهر بالصراحة البريئة من الغمز واللمز، تزينه السلامة المسيحية النقية. فاشترك الآباء الثلاثة في صلاة الليل، وحضرها نفر من الشيوخ المتجهدين. وبعد ختام الصلاة ولَّى الكهنة الثلاثة وجوههم نحو القبر وأخذوا يقومون ويخرون ساجدين الى الأذقان أمام الضريح حتى بان التعب فيهم .

مشهد ربح : بضعة شيوخ أصغرهم ابن خمس وسبعين يقومون بهذه النافلة الدينية الشاقة، والكهنة الشباب يغطون في مضاجعهم الناعمة. ثم ودعوا القبر بلثم الغطاء بعد أن ملأوا السرج زيتاً. كان نوم الخوري يوحنا عبود تلك الليلة منقطعاً، ينتفض بين آونة وأخرى. واستيقظ فجر السبت على صياح الديك فتذكر جحود بطرس فتألم. وسار الى الكنيسة ماراً بأخويه الكاهنين، ومشوا معاً الى الهيكل بخطى الشيوخ ليقوموا صلاة الصبح والذبيحة الإلهية. وبعد إتمام واجباتهم الدينية خرجوا ثلاثتهم وجلسوا ضحى ذلك اليوم الضاحك تحت سنديانة الكنيسة. قرأوا فصلاً من كتاب "الافتداء بالمسيح" وتذكروا بعد تلاوة شؤون القرية. فتشهد الخوري يوحنا عبود وتأفف الخوري موسى، وتحنج الخوري يوحنا صادق، وكان حديث... قال الخوري موسى بنبرة: أوف، أوف، ضيعة شيطانها كبير. فأجاب الخوري يوحنا صادق: يا معلمي خوري يوحنا، كل الحق علينا نحن الخوارنة. يا خوري موسى، شيطاننا نحن أكبر من شيطان الحوري، ينقصنا كثير من التقوى. لو كنا كما يجب ما عجز المرسل البطريركي عن مصالحة أولاد رعيتنا. فاحتدَّ الخوري يوحنا صادق وقال: يا معلمي، الحكيم الغريب لا يعرف المرض البلدي، نحن وحدنا نعرف كيف نطبخ مرضانا، صدقتي قلت لك. لا تهز برأسك. فهزَّ الخوري موسى رأسه كعادته أيضاً وقال: مليح. هات يدك يا خوري حنا. فلم تعجب الخوري يوحنا لهجة الخوري موسى فردد: هات يدك يا خوري حنا. يا خوري موسى، يد واحدة لا تصفّق، المسألة بسيطة جداً، اسمعوا: انا ابو ثلاثة، وأنت يا خوري موسى أبو ثلاثة، وجدّ أربعة، وخال اثنين، منو بعيد عنك يا معلمي؟ ابني صهرك، وابن حنا بشاره صهرك، وبو أسعد صهري وابن عمك. من بقي؟ هذي الضيعة يا خوري موسى. لو تجردنا نحن الخوارنة عن الغابات، وحتّمنا على أولادنا وأحفادنا وأقاربنا انفضّ المشكل وارتاحت عين كفاع.

فنظر الكهنة إلى بعضهم مبهوتين كمن حاول طويلاً حل عقدة وإذا بها تنفج بين يديه فجأة. لم يفوها بكلمة بعد هذا، ودخلوا الكنيسة ثلاثتهم وصلوا صلاة المساء ورتبة الغفران. ثم انصرفوا الى بيوتهم، إلا الخوري يوحنا عبود فظل في ساحة الكنيسة يتمشى ذهاباً وإياباً وله من نفسه رقيق يحدّته ويناجيه، ودخل الهيكل بعد ذلك فخلع عن المذبح ثوب الحداد وزينه لاستقبال العريس الذي غلب الموت بالموت ووهب الحياة لمن في القبور. وقضى الخوري يوحنا عبود ليلة السبت في الكنيسة يعرف ويصدّي منتظراً ساعة القيامة ليبتهج بالرب. وركع طويلاً أمام القبر يسأل الفادي النعمة للضيعة وللمؤمنين بالمسيح جميعاً. وكانت ليلة حزنه تنجلي كلما اقترب نصف الليل. كنت ترى وجهه يشرق رويدا رويدا كجبال لبنان عند دنو طلوع القمر. وأزفت الساعة فهبَّ الخوري يفرح الجرس كأنه ابن عشرين. وتوارد الناس على الهيكل بيوتاً بيوتاً كباراً وصغاراً، فامتأل الهيكل بمصابيحهم وفاض نوراً، كلهم بألبسة العيد. واشترك الكهنة الثلاثة في الذبيحة الإلهية بوجوه تفيض بشراً كأن هناك قيامة حقيقية وظفراً واقعياً. ويا لغبطة الخوري عندما هتف بصوته الجمهوري الذي ملأت

اهتزازاته حنية المذبح خشوعاً ورهبة: المسيح حقاً قام، أفرحوا أيها الأنام. ورد عليه الشعب: مريم كفي البكا، المسيح حقاً قام. وأقام الكهنة مخذّصهم من قبره بحسب المراسم البيعية المارونية، وطافوا بالصليب والزهور في الكنيسة ثلاثاً، وفي أيدي الناس الشموع المضاعة. وبعد انتهاء الطواف وزّعت الأزهار المباركة على الشعب، ثم استأنف الكهنة رتبة القداس الاحتفالي. وشاء الخوري يوحنا عبود أن يلقي موعظة بمناسبة القيامة، فأطبق الإنجيل بعدما تلاه، ووضعه في مكانه من عن يمين المذبح، والتفت إلى الشعب، فجلسوا جميعاً بين يديه وسكتت الكنيسة، فقال:

يا اخوتي المباركين:

القيامة رمز للحياة الجديدة، فسيدنا يسوع المسيح له المجد قال: ان حبة الحنطة ان لم تمت لا تعيش، وكذلك نحن اذا ما متنا مع الفادي وقمنا بقيامته فلا حياة لنا في ذواتنا. إن موت النفوس بالندامة مثل النار التي تنقي القلوب وتصيرها صافية نقية الكفضة الروباص. ليست القيامة بالتخلص من الصوم والقطاع والتشف، وليست القامى أكل بيض ولحم، بل القيامة أن تخرج من الصوم المقدس كأنك جديد روحاً وجسماً. العيد أن يحاسب الرعاة كباراً وصغاراً - من السماس إلى البترك - ضمائرهم على إهمالهم وتقصيرهم في سياسة اللأوقاف والأيتام والقاصرين والقاسرات والأرامل، وأن يسعوا دائماً وراء نمو الألفة المسيحية في الطائفة، وأن يسهروا على أعمالنا نحن الكهنة في الصاع، وينصفوا المظلومين منا ومنهم. أنا متأكد، يا اخوتي، ا، أجسادكم نقأها الصوم والانقطاع عن (الزفر)، ولكن من يؤكد لي أن نفوسكم تجددت بالمسيح وتقوت بنعمته؟

ان الركب المتخلعة لا يشدها إلا الإيمان، ولا يتعلم التضحية والمحبة الحقيقية إلا من حضر آلام السيد المسيح وموته يوم الجمعة العظيمة، فما استفدتم شيئاً من صلب المسيح وموته؟ لم يممت المسيح يا أولادي ألفا وتسعمائة مرة. المسيح مات وقام مرة واحدة فقط، وهو جالس عن يمين أبيه السماوي. نحن نحترف بتذكارة موته وقيامته كل سنة لنلا ننسى آخر درس علمنا إياه على الصليب: يا أبتاه اغفر لهم. أعرفتم لمن غفر؟ غفر لصالبيه، فهم غفرتم أنتم لمن أساء اليكم من أقربانكم؟ أستم كما كنتم حزبين؟ فأين مسيحتكم يا أولادي؟

ان الثياب الوسحة تقلع وتغسل كل جمعة، فلماذا لا تقلعون ثيابكم الوسخ؟ يكفي لبسها أربع سنين. اقلعوها، يا أولادي، ابدلوها بثوب القيامة الأبيض النقي. ان القدر الفذرة لا تشتهي النفس طعامها. بيّضوا قدوركم لتقبل نفوسكم على الطعام الذي تطبخزن، نحن حاضرون غب الطلب. ان ما تقدموه لله بأيد وسخة يسد أنفه إذا رآه، ويحول وجهه عنكم إذا تقدمتم اليه، فلماذا لا تغسلون أيديكم ووجوهكم لتقابلوا ربكم أطهاراً أنقياء؛ ان الماء لا ثمن له، فاقتربوا من الماء الحي تتطهروا وتنظفوا. ان دمة واحدة تمحو ألف خطية. لا تتعجبوا يا اخوتي، اذا كلمتمكم بهذا بلساني ولسان أخوي المشتركين بهذه "التقدمة" التي قدمناها لأجلكم، فنحن مسؤولون عنكم كأناس يهدون حسابكم كما قال بولس الرسول.

وإلا فما معنى الوزنات الخمس في الإنجيل الطاهر؟ أنتم الوزنات الخمس، فالمسيح لم يكن تاجراً، ونحن العبيد الذين انتمونا عليها. فان ربنا دخلنا فرح سيدنا، وان دفناً فضته يقول لنا: أخرجوا العبد البطل إلى الظلمة البرانية حيث يكون البكاء وصريف الأسنان. وإذا أحد أول وفسر لكم غير هذا التأويل والتفسير فهو دجال يكذب على المسيح وكنيسته. لا تصدقوا الذين يتفلسفون على ربهم ليحللوا الربا والتجارة لأنفسهم، فهؤلاء عبيد المال وربنا قال: ي يمكنكم أن تعبدوا ربين الله والمال. ان هؤلاء الناس آلهتهم بطونهم كما قال مار بولس،

لا يهتمون إلا للغد، ناسين كلام ربهم ومخلصهم. نحن رجال الدين متجرنا في النفوس، مخازننا كنائسنا، والأسواق ولدكاكين محرمة علينا. نحن يجري علينا ما قال ربنا لآدم أينا الأول: بعرق جبينك تأكل خبزك. نحن لا يحل لنا الكسب من الأكياس، بل من خيرات الارض أمانا. نحن لا يحل لنا الكسب من الأكياس، بل من خيرات الارض أمانا. فأنا أفلح وأزرع مثلكم، ومتى وضعت يدي على المحراث لا ألتفت ورائي، بل أنبسط إلى ما قدّامي كما قال رسول الامم. ومتى أويت الى بيتي لا أفكر إلا بخيركم الروحي. ونحن وأنتم بألف خير، نشكره تعالى.

أنتم التجارة التي حلت لنا، وواجباتنا أن نعمل ونعلّم حتى ندخل ملكوت السموات. فليس كل من يقول: يارب، يارب، يدخل ملكوت السموات، بل من يعمل إرادة أبي الذي في السموات. هكذا قال فادينا له المجد. قال لنا الرب يسوع: أنتم نور العالم، فيا ويلنا إذا كان النور الذي فينا ظلاماً؛ ويا ويلنا إذا لم تكن مقلداً صالحاً لرعتنا؛ الابن يتبع أباه، والتلميذ معلمه، والمسيحي خوريه، والخوري مطرانه وبطرکه، ومن لا يعمل بما يعلم لا تسمع كلمته. أما الحجّة التي يلتجئ اليها المؤمنون إذا رأوا شكوكاً في سيرتنا، نحن الكهنة، والرؤساء، فيقولوا: إسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم. هذا خلط. المثل الصالح مطلوب منّا قبل كل شيء آخر، فالمسيح قال: الويل للعالم من الشكوك، والويل لمن تأتي على يده الشكوك. ولو يرضى أن نكون كالكتبة والفريسيين والعشّارين ما غيرّ الناموس، وما قال لنا: أنتم ملح الارض فان فسد الملح فيماذا يمدّح؟

لا تتبعوا القادة العميان الذين يعفون عن البرغشة ويبلعون الجمل... نحن السراج الذي لا يوضع تحت مكيال، بل على منارة ليشهد الذين في البيت نوره. فيا ويلنا إذا كانت زجاجتنا مسوّدة بالخطايا والذنوب، وسوء السيرة. أنا أعظّم وأعلم اني خاطئ مثلكم، فالكمال لله يا أبنائي، ولكني أغسل نفسي دائماً بمعمودية الاعتراف والندامة والتوبة لأصلح مرآة لكم. ولى الاعتراف والندامة والتوبة دعوتكم وأدعوكم ما عشت. فافتربوا من مائدة الخلاص تشبعوا وتملأوا عيونكم من خيرات السماء والرض والقلب يضحك لكم.

من يعتقد منكم، يا أولادي، أن يدي ملوثة فلا يقبلها، هكذا يصلح الشعب رؤساءه. ان اليد الوسخة لا تستحق أن تلمس فكيف بالتقبيل. والراعي الذي يبغض غنمه يستحق لعنة الذناب. نجنا يارب؛ والأب الذي يكره أن يكون الفرخ عند بنيه شيطان هو، رد عنا غضبك يا الله.

فأروني، يا إخوتي الأحباء، ان نعمة يسوع المسيح حلت فيكم. اصلحوا كل خلل بينكم لتقوموا مع المسيح وتستحقوا فرح القيامة. اتركوا النكايات والكيد لبعضكم. اغفروا للناس زلاتهم ليغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم. بهذا تعيشون بغناء عن أبواب الرؤساء والزعماء والمقرّبين من الحكومة الذين يحملونكم مكاتيبهم للحكام ليساعدوا هذا على ذلك ويخربوا بيوتكم. السلام المسيحي يغنيكم عن البشر كلهم، كونوا مسيحيين.

وأنا الذي صرت على حافة قبيري، ربما أغمض في هذا العام عيني لأفتحها على عرش الديان الرهيب، فماذا أقول لك يا يسوعنا الحبيب إذا سألتني: كيف تركت رعيّتك أهالي عين كفاع؟ هنالك لا كذب يا أولادي. أقول له: تركتهم حزبين يلعب بينهم الغزال... هذا حزب بولس، وهاك من حزب أفلو. وفي الحزبين أولادي وأبناء أخي وبنو أختي وأحفادي وأصهارى وأقربائي. يا خيبيتي؛ أقول له: تركت البغض في القلوب يحرق الأخضر واليابس وما قدرت أن أصلحهم. يا خجلتي منك يا يسوع؛ أقول له: تركت الضيعة قائمة قاعدة، والشيطان معشش

فيها، دق رزة واستبرك. يا ويلتي من تلك الساعة؛ فأستحلفكم، يا أولادي، بجراحات سيدنا يسوع وآلامه أن لا تبعثوني إلى الدينونة بهذه الخيبة.

وأنتم، يا اخوتي الشيوخ، ماذا تحملون الى القبر؟ فكروا في هذه الكلمة وكونوا قدوة لأبنائكم. تذكروا كلمة الرب يسوع: من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخلّ له رداك أيضا. فإلى التسامح والغفران، أيها الأبناء الأعزاء، إذا شئتم أن تقوموا مع المسيح وتتجددوا بروحه. اغفروا لي، يا اخوتي، جميع ما أخطأت به اليكم بالفكر والقول والفعل. شمسي صارت على الغياب. سامحوني وتذكروني في العام المقبل وصلّوا لأجلي.

وأحيرا أسأل الله الذي جمعنا في هذه الدنيا ألا يفرقنا في الآخرة، بشفاعاة القديس روحانا صاحب المقام، والقديسين العظميين مار مارون ومار يوحنا مارون، والرسولين الطاهرين بطرس وبولس. فلتحل عليطم نعمة الثالوث الأقدس: الأب والأبن والروح القدس، آمين، والسلام لجميعكم.

واستأنف الكهنة الذبيحة الإلهية، فصاح الشماسة منشدين نشيد القيامة: سلاماً سلاماً للقريبين مع البعيدين، الخ. وبعد أن بخر الكاهن غسل يديه، ولم يستطع أن يضبط لسانه، فالتفت الى الشعب ثانية وقال: أكثركم يرى الخوري يغسل يديه في القداس ولا يعرف معنى ذلك، هذا، يا أولادي، إشارة الى عمل بيلاطس البنطي عندما سلّم المسيح الى قيافا وزمرته. غسل ذلك الظالم يديه وقال: أنا بري من دم هذا الصديق.

أنا، يا اخوتي، لا أقول ذلك، بل أقول بالعكس، أقول ما قاله النبي داود: امح، يارب، ذنوبهم وخطاياهم، أنضحهم بالزوفى فيطهروا، أغسلهم فيبيضوا أكثر من الثلج. قلباً نقياً اخلق فيهم يا الله، وروحا مستقيماً جدّ في داخلهم. وولى وجهه صوب المذبح ومضى في عمله، فصاح الشماس عند أخذ "السلام" من يد الكاهن: ليعط كل واحد قريبه السلام بمحبة وأمانة الله، هلم بالسلام يا أبانا الكاهن النقي. فعلت الضجة في الكنيسة فظن الكهنة أن قد علق الشر. والتفتوا فوقعت أعينهم على مشهد لم يسبق له نظير في التاريخ الكنسي: أهل القرية يتصافحون ويتسالمون في صحن الهيكل، كلّ يفتش عن خصمه ليعطيه السلام ويصافحه ويقبله. فرفع الكاهنان أيديهما وباركا الشعب. واضطرب الخوري موسى لأنه أعمى لا يرى ما وقع، فصاح به الخوري يوحنا صادق: بارك يا خوري موسى، دعسنا الشيطان.

=====